مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(غلاطية ٤: ٤–٧)

يا إخوةُ لمَّا حانَ ملءُ الزمانِ أرسلَ اللهُ ابنَهُ مولوداً من امرأةٍ مولوداً تحتَ الناموس* ليفتَدِيَ الذينَ تحتَ الناموس لننالَ التبنّي* وبما أنَّكم أبناءٌ أرسلَ اللهُ روحَ ابنهِ إلى قلوبكم صارخاً يا أبَّا الآب* فلستَ بعدُ عبداً بل أنتَ ابنٌ. وإذا كنتَ ابناً فأنتَ وارثٌ للهِ بيسوعَ المسيح.

الإنجيل

(متى ١:١٨–٢٥)

إنَّ مولدَ يسوعَ المسيحِ كان هكذا. لمَّا خُطبتْ مريمُ أمُّهُ ليوسفَ وُجدتْ من قبل أن يجتمعا حُبلى من الروح القدس* وإذ كان يوسفُ رجلُها صِدّيقاً ولم يُردْ أن يشهرَها همَّ بتخليتها سِرًّا* وفيما هو متفكّرٌ في ذلك إذا بملاكِ الربِ ظهر لهُ في الحلم قائلاً يا يوسفُ ابنَ داودَ لا تَخَفْ أن تأخذَ امرأتَك

والكلمة صار جسداً

وحل بيننا

يفتتح الإنجيلي يوحنا هذه الآية (١:١٤) بحرف عطف يسترعي الانتباه بلا ريب، لا سيما وأن الآية المذكورة لا ترتبط بسابقتها بصلة مباشرة. الـ«واو» تأتي هنا لتعيد الاتصال، بشكل مفاجئ ولكن بإحكام، بتسلسل الآية الأولى من إنجيل يوحنا فنقرأها هكذا: «في البَدءِ كانَ الكلمةُ والكلمةُ كانَ عندَ اللهِ وكانَ الكلمةُ اللهَ... والكلمةُ صار جسداً وحلَّ بيننا...». في عطف البعد الزمني (الكلمة صار جسداً) على البعد الأزلي يحدّثنا الإنجيلي يوحنا عن سر انعطاف الله على الإنسان، المتحقق في التجسّد، متمماً تلك المصالحة العظمى بين البشر والله. الكلمة الأزلي، ابن الله الوحيد، يحتضن بتجسّده الأزلية والزمان: «في البدء كان الكلمة...»، «والكلمة صار جسداً...». هو نفسه الذي كان منذ البدء «عند الله» أتى و«حلَّ بيننا»، والمولود من مريم البتول هو الكلمة الذي جمع في ذاته الله والإنسان على ما أراد الإنجيلي يوحنا إيصاله إلينا بعطفه «الكلمة صار جسداً» على «وكان الكلمة الله». فبعدما جال بنا الإنجيلي على الكلمة في أزليته كائناً في الله منذ «البدء»، يرينا إياه «بيننا» بالجسد، في يسوع المسيح الذي به النعمة والحق صارا (١:١٧).

من الضروري الانتباه إلى أن الإنجيلي يوحنا ما قال «صار إنساناً» بل «صار جسداً»، أي أن الكلمة لما تجسد ما صار مجرد واحد من الناس بل أنه صار «بشراً»، مختصراً البشرية في ذاته، ولذلك يطلق المسيح على نفسه اسم «ابن الإنسان»، وهو ما نفهمه «الإنسان الجديد».

في حياته على الأرض عاش المسيح ملء البشرية بضعفها وآلامها، دون الخطيئة التي ليست من جوهر الطبيعة البشرية بل طارئة عليها. على هذا ما فقد المسيح ولا هنيهة شيئاً من لاهوته، أو كونه «الكلمة الله»، فاستطاع أن يرفع الطبيعة البشرية التي صار فيها إلى التأله، بالنعمة الكائنة فيه. بهذه النعمة نفسها، والصائرة إلينا منذ التجسد وبه، صار من الله «كل روحٍ يعترفُ بيسوعَ

العدد ٢٠٠٥/٥٢

الأحد ٢٥ كانون الأول

ميلاد ربنا ومخلّصنا

يسوع المسيح بالجسد

مريم. فإنَّ المولودَ فيها إنَّما هو من الروح القدس* وستلِدُ ابناً فتُسمّيهِ يسوعَ فإنَّهُ هو يخلّصُ شعبَه من خطاياهم* (وكان هذا كلُّهُ ليتمَّ ما قيل من الربّ بالنبي القائل: ها إن العذراءَ تحبلُ وتلدُ ابناً ويُدعى عمَّانوئيلَ الذي تفسيرُه الله معنا)* فلمَّا نهض يوسفُ منَ النومِ صنع كما أمرَهُ ملاكُ الرب. فأخذ امرأتَهُ ولم يعرفْها حتى ولدتِ ابنَها البِكرَ وسمَّاهُ يسوع.

تأمل

إنني أشاهد سراً عجيباً مستغرباً. الرعاة يصعّدون بأعلى صوتهم نغماً سماوياً. الملائكة، رؤساء الملائكة، الشاروبيم والسارافيم يسبّحون.الكلّ يعيّد مشاهداً إلهاً على الأرض وإنساناً في السموات. ما هو فوق ينحدر بحسب التدبير، وما هو تحت يرتفع بمحبّته للبشر. اليوم تتشبّه بيت لحم بالسّماء، تتقبّل بدل الكواكب ملائكة يسبّحون، وبدل الشمس شمس العدل تستضيفها بطريقة لا توصف. لا تسأل كيف لأنه حيث يشاء الله يُغلب ناموس الطبيعة. لقد شاء واستطاع، انحدر وخلّص وجمع كلّ

المسيحِ أنَّهُ قد جاءَ في الجسدِ» كما يقول القديس يوحنا في رسالته الأولى (٤:٢). هكذا ولما صار الكلمة جسداً فُتح الطريق للخلاص، عبر الاتحاد بالمسيح عضوياً بواسطة جسده المستمر في الكنيسة «لكي تمتلئوا إلى كلِّ ملءِ اللهِ» (أف ٣:١٩)، ولهذا الاتحاد شرط هو الإيمان الشخصي، على ما يقول السيد نفسه. «إنْ أحبَّني أحدٌ يحفظْ كلامي ويُحبُّهُ أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو ١٤:٢٣). هذه المواعيد العظمى، هذا الحب الإلهي الذي ارتضى النزول إلينا لنصير بأجسادنا، أي ببشريتنا، منزلاً لله ما كانت لتتم لو ما «الكلمة صار جسداً».

لقد اتحدت الطبيعتان الإلهية والبشرية في المسيح، كل منهما في ملء خصائصه، اتحاداً كلياً وكاملاً دون أن تذوب واحدة في الأخرى، أو أن تشوّش واحدة على الأخرى. ولما مات ربنا يسوع على الجسد ما فارقه اللاهوت، لذلك ما فسد جسده ولذلك قام، وبهذا صار موته خلاصياً. جسده البشري قَبِلَ الموت لأنه جسدنا نحن، ولكنه انتصر على الموت لأنه كان خالياً من مكوّنات الموت وهي الخطيئة. هذه هي الطبيعة الجديدة التي متى اتحدنا بالمسيح نصير عليها. أيضاً لما قال الرب «أنا هو القيامة والحياة»، قالها على أساس قوة القيامة الكائنة في جسده، الآتية من لاهوته. ولما بكى على صديقه الحبيب لعازر، وهو مزمع أن يقيمه بسلطانه الإلهي، عبّر أعظم تعبير عن احتضانه الإلهي لأحزان الإنسان وكأنه بتعبير جسدي (البكاء) يوضح ما جاء في إشعياء: «في كلِّ ضيقِهم تضايقَ... بمحبَّته ورأفتهِ هو فكَّهم ورفَعهم وحملهم...» (٦٣:٩). لم يأتِ المسيح في حياته العلنية عملاً إلا بتلازم تام بين طبيعتيه محققاً لنا الإنسان الجديد المسترجع إلفته مع الله، مستعيداً ما كان عليه قبل السقوط وفوقه نعمة الكمال بالمسيح. هكذا متى اكتسبنا نحن، بنعمته وجهادنا، هذا الاتحاد التام به لا يعود فينا انفصام بين ما للأرض وما لله. هكذا يصبح جسدنا الترابي، الذي كان قبلاً مرتعاً للخطيئة، هيكلاً لمجد الله. «من مِلئِهِ نحن جميعاً أخذْنا، ونِعمةً فوق نعمة»، يقول يوحنا في إنجيله (١:١٦). وإذا فهمنا هذه الـ«نحن جميعاً» على أنها امتداد على البشرية بأسرها، منذ التجسد وإلى انتهاء الدهر، نفهم أننا بقدر ما امتلأنا منه نزداد نعمة فوق نعمة «إلى كل ملء الله»، على قول الرسول بولس (أف ٣: ١٩). يبقى أن المعبر العملي من الموت إلى الحياة هو الإيمان بالمسيح مرسَلاً من الله فداءً للبشر وخلاصاً، واعتناق كلامه ناموساً للحياة (يو ٥:٢٤)، والاشتراك في الذبيحة الحاصلة مرة على الصليب والمستمرة في الكنيسة إلى الأبد (يو ٦: ٥٤). الكلمة والجسد صارا واحداً، بانسجام مطلق بين الإلهي والبشري، والوحدة نفسها نستمدها من المسيح صانعها بقدر ما نلتصق به، نعيشه، لأننا إذ ذاك «نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو» و«كلُّ مَنْ يثبُتُ فيهِ لا يُخطئ، كل من يُخطئ لم يبصره ولا عَرَفَهُ» (١يو ٣: ٢،٦).

في سِفْر زكريا النبي يقول السيد الرب واعداً «ترنمي وافرحي يا بنت صهيون لأني هأنذا آتي وأسكن في وسطك» (زكريا ٢:١٠)، والإنجيلي يوحنا يقول «وحلَّ بيننا» مبشِّراً بتحقيق النبوءة. هذا هو فرحنا، وبهذا الفرح نحتفل بعيد الميلاد.

شيء وأعاده إلى الله. اليوم يولد الكائن الذي يصير إلى ما لم يكن لأنه وهو الله قد صار إنساناً من دون أن يتحوّل عن ألوهيّته... هو الكلمة الذي صار جسداً من أجل تطهيرنا ولم يزل محافظاً على طبيعته الإلهية...

الملوك معجبون بأمر الملك السماوي: أتى لا تواكبه الملائكة ورؤساء الملائكة ولا العروش والسيادات ولا القوات والسلاطين، بل وطئ طريقاً غريبة غير مسلوكة، خرج من بطن بلا زرع دون أن يتخلّى عن العناية بملائكته، وتجسّد من أجلنا دون أن يفارق ألوهيته.

أتى الملوك ليسجدوا لملك المجد، الجنود ليخدموا رئيس القوات، النساء ليرين الذي ولد من امرأة لكي يحوّل أحزان المرأة إلى فرح، العذارى ليشاهدن ابن العذراء: الخالق المغذّي الينابيع والمسيّر الأنهار الجارية تلقائياً، يُحمَل على ساعدي أمّ عذراء ويتناول غذاءَ طفل، الأطفال ليروا الصائر طفلاً. الأولاد ليروا الولدَ الشاهد لحيلة هيرودس، الرجال أمام الذي صار إنساناً ليشفي أمراض البشر، الرعاة أمام الراعي الصالح الذي يبذل نفسه من أجل الخراف، الكهنة

لنعيد أيها الشعوب

«لنسبق ونعيِّد أيها الشعوب لميلاد المسيح. وإذ نرفع العقل إلى بيت لحم، فلنهتف بضمائرنا ونشاهد بأفكار القلوب البتول مقبلة لتلد في المغارة رب الكل إلهنا، الذي قد عاين يوسف جسامة عجائبه وكان يظن انه يُبصر إنساناً مدرجاً في الأقمطة كطفل، لكنه تيقن من الأفعال انه هو الإله الحقيقي المانح نفوسنا الرحمة العظمى» (من غروب تقدمة عيد الميلاد، ٢٠ كانون الأول).

المسيحية هي إعلان للفرح والابتهاج في كل المسكونة. الإنجيلي لوقا يدوِّن الكلمات التي نطق بها ملاك الرب لزكريا عندما بشَّره بولادة يوحنا المعمدان: «ويكونُ لكَ فرحٌ وابتهاجٌ وكثيرونَ سيفرحونَ بولادته، لأنه... يُهيّء للرَّبِّ شعباً مستعداً» (لو ١:١٤–١٧). كما انه يدوِّن ما قاله الملاك للرعاة الساهرين على قطيعهم في الليل: «ها أنا أبشِّركم بفرح عظيم يكونُ لجميعِ الشعبِ، أنَّه وُلد لكم اليومَ في مدينةِ داود (بيت لحم) مُخلِّصٌ هو المسيحُ الرَّبُّ» (لو ٢:١٠و١١). زكا العشار عرف ان هذا الإنسان العابر في أريحا والذي اسمه يسوع، هو المسيح المخلّص عندما ناداه للنزول من الجميزة، فأسرع زكا «ونزَلَ وقبِلَهُ فرِحاً» (لو ١٩:٦). وأخيراً بعدما قام يسوع وأظهر مجده، أخذ تلاميذه إلى بيت عنيا وصعد إلى السماء «فسجدوا له ورجَعوا إلى أورَشليمَ بفرحٍ عظيم. وكانوا كلَّ حين في الهيكلِ يُسبِّحونَ ويُباركونَ الله» (لو ٢٤:٥٢ و٥٣).

تشدِّد التراتيل التي تُتلى على مسامعنا منذ يوم عيد تقدمة الميلاد في ٢٠ كانون الأول على الفرح الواجب علينا في ميلاد المخلِّص وعلى ضرورة الإحتفال والتعييد لهذا الحدث الخلاصي. نسمع «لنعيِّد أيها الشعوب»، «لنرتقِ بضمائرنا ونشاهد بأفكار القلوب»، «لنرفع العقل إلى بيت لحم»، «فافرحي أيتها المسكونة إذا سمعت ومجّدي مع الملائكة والرعاة» إلخ... هذه الكلمات ليست دعوات تقويّة حماسية أو عاطفية، وقد يوجد مَنْ يحب مثل هذه الدعوات، إنما هي دعوات أساسية للحياة الروحية لكل إنسان يريد المشاركة في الخلاص الذي منحنا إياه الرب. لقد خلق الله الإنسان منذ البدء ليُعيِّد ويفرح بعطاياه التي منحه إياها الله، بل ليحتفل بالله نفسه مانح العطايا. يقول أحد اللاهوتيين أن كل خطيئة بشرية، بما فيها خطيئة آدم، تكمن في الإنحراف عن هدف حياة الإنسان الذي هو الاحتفال فقط بالله وبما يفعله لأجل الذين صُنعوا على صورته ومثاله. الاحتفال أو التعييد الخاطئ هو الذي يستثني الله ويحاول أن يفرح بشيء غير الله وحضوره وعمله في العالم. بكلام آخر، إنه احتفال بعطايا الله دون الإشارة إلى الله المعطي، مصدر كل الخيرات. احتفال كهذا يقود بالضرورة الإنسان إلى الشعور بعدم الرضا واليأس وربما الموت. يدخل الإنسان في الفراغ إذ لا يعود من هدف لحياته.

موسم الميلاد هو زمن التعييد والفرح والابتهاج. لكن بعض البشر، بمن فيهم بعض المسيحيين، فارغون من روح التعييد الفَرِحَة، حتى ان العيد يجعلهم مضطربين ويصيبهم باليأس فيتمنون انتهاء الموسم. السبب واضح: إنهم يُعيِّدون بشكل خاطئ، لم يُدركوا جوهر العيد واكتفوا بالقشور. إنهم لا يعيِّدون لله ولعطاياه بما فيها الرب يسوع، بل

أمام الذي صار رئيس كهنة على رتبة ملكيصادق، العبيد أمام الذي أخذ صورة عبد لكي يعتقنا من العبوديّة، الصيّادون أمام الذي صيّر التلاميذ صيّادي البشر، العشّارون أمام الذي حوّل العشّار إلى مبشّر بالإنجيل، الزنّاة أمام الذي تقبّل مسح قدميه بدموع الزانية. باختصار جاء الخطأة كلّهم ليشاهدوا حَمَلَ الله الرافع خطايا العالم: المجوس يقدّمون الهدايا، الرّعاة يمجّدون، العشّارون يبشرون، الزانيات يحملن الطيوب، السامرية تسارع إلى ينبوع الحياة والكنعانيّة تتقبّل إيماناً لا ريبَ فيه.

أود أن أرقص إذ أرى الكل يرقصون، أود أن أغنّي معهم، أن أحتفل مع الجميع. أغنّي لا ضارباً على القيثار ولا محرّكاً الكنّارة، لأنني عوض الآلات الموسيقيّة أحملُ أقمطة المسيح. هذه تشكّل رجائي، هذه هي حياتي، هي خلاصي، هي محفلي الغنائي، هي قيثارتي. لذلك آتي حاملاً إيّاها لكي بقوّتها أستطيع أن أرتّل مع الملائكة: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة».

القديس يوحنا الذهبي الفم

لملذاتهم الجسديَّة ولشهواتهم البشريَّة. قد يمرحون كثيراً في فترة العيد، سهرات وهدايا وسعي لإرضاء أذواق الغير، لكن الفرح الأصيل يهجرهم. وعندما يصلون إلى نهاية «الموسم المقدس» يكونون قد أُنهكوا واستُنفدوا لأن ما كانوا يتوقون إليه ليس كافياً بحد ذاته. بكل الأحوال، ما حصلوا عليه ينتهي مع نهاية الموسم، ويبدأ التفكير بموسم آخر للمرح. ويعودون إلى اجترار تعاستهم.

قسم آخر من البشر يدخلون موسم الميلاد المقدس بعزم ثابت على الإحتفال بالمخلِّص، عطيَّة الله المجانية، ومُصرِّين على أن يكون تعييدهم دينياً وروحياً. لكن هؤلاء أيضاً يشعرون بالفراغ والموت بعد انتهاء الموسم وذلك لأنهم استنفدوا قواهم كلها في النظر إلى الغير، في دينونة غيرهم ممن يعيّدون بـ«الأمور الأرضية». هؤلاء لم يفتدوا الوقت في الغَرْف من مَعِين النِعم الإلهية ليمتلئوا فرحاً، بل أفسدوا الزمن المقدس المُعطى لهم ولعائلاتهم ولأصدقائهم بانتقادهم المهتمين بالأمور الدنيوية والبُعد الاستهلاكي الذي غزا العيد، بدل أن يباركوا الله ويفرحوا بالعيد على حقيقته. فيما كانوا يؤنبون غيرهم لغياب المسيح عن عيد الميلاد، أخرجوا يسوع من احتفالاتهم بسبب تبريرهم الفريسي لأنفسهم وإدانتهم لإخوتهم وأخواتهم الذين أتى المسيح أيضاً لأجلهم ومات لأجلهم، وإن كانوا يعلمون أو لا يعلمون هذا.

أما نحن فلنعيِّد بشكل صحيح. لنذهب إلى بيت لحم لنشاهد بأفكار القلوب ابن الله متجسداً، وليس إلى بيوت الآخرين لنراقب حياتهم الخاصة. لنرفع عقولنا إلى الرب فلا نتوه في تفاصيل حياة جيراننا. لنرتقِ بضمائرنا إلى الله ونركز العقل والفكر والقلب عليه ونفرح برحمته ومحبته للعالم، حتى العالم الإستهلاكي الدنيوي حيث يحكم الشرير. فهو قد أتى لخلاص مثل هؤلاء. لا نُفسدنَّ العيد على أنفسنا وأحبائنا بما يفعله أو لا يفعله الآخرون. لنسعَ أن نبقي المسيح في الميلاد عبر إبقاء المسيح في قلوبنا ووضع أنفسنا في قلب المسيح. عندها سوف يكون عيد الميلاد فعلاً هو زمن الاحتفال بمجيء الله في شخص ابنه الوحيد.

ما يحتاجه العالم اليوم هو احتفال أو تعييد إلهي، وهذا ما تقوم به كثير من الكنائس المسيحية. لا نتلهى بالأمور الدنيوية وننسى معطي العطايا، ولا نتلهى بإدانة الآخرين وننسى ان الله هو الديّان العادل الرحوم. لنعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله، دون أن ننسى ان رب قيصر هو الله.

ذكرى ختانة الرب

بمناسبة ذكرى ختانة الرب يسوع وعيد القديس باسيليوس الكبير ورأس السنة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الأحد الأول من كانون الثاني ٢٠٠٦ في كاتدرائية القديس جاورجيوس في ساحة النجمة.

ويعتذر سيادته عن عدم تقبّل التهاني بسبب المصاب الأليم الذي أصاب الطائفة.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb